الدكتور أمان الدين محمد حتحات
جامعة الإمارات العربية المتحدة
وحدة المتطلبات الجامعية العامة، برنامج اللغة العربية.

مراحل تطور الكتابة العربية حتى نهاية القرن الثاني الهجري

مراحل تطور الكتابة العربية حتى نهاية القرن الثاني الهجري

لم تحظ أمة من أمم الأرض بما حظيت به الأمة العربية من تاريخ عريق للكتب والمكتبات يمتد إلى ما قبل خمسة آلاف عام، ولم يكن هذا الامتداد من فراغ، بل جاء نتاجاً للعلاقة الوثيقة بالميراث الثقافي والحضاري لهذه المنطقة، التي تعاقبت عليها حضارات شتى تراكمت، وتفاعلت، وتمازجت في نسيج رائع، حتى غدت بلادنا مركز إشعاع فكري امتد نوره؛ ليغطي العالم القديم المعروف آنذاك.

وهنا يتضح لنا هذا النسيج الذي يبرز عمق الجذور في تاريخ الكتابة والتوثيق، حيث نمت في الأرض العربية، وفيها نشأت أقدم المكتبات في العالم، وفي رحابها استقرت وحفظت الوثائق، والنصوص المكتوبة منذ آلاف السنين، شاهدة على حضارة عريقة، ترمز لما مثلته المعرفة والتدوين والكلمة المكتوبة والوثيقة من أهمية بالغة.([1])

تجلت ملامح هذا الإشعاع فيما بقي لدينا من آثار للكتابة؛ من ذلك ما ذكره الجاحظ والهمذاني عن النقوش الكثيرة والكتابات التي زين بها قصر غمدان، وكعبة نجران وباب القيروان وباب سمرقند وباب الرها وعمود مأرب وركن المشقر والأبلق الفرد، فهذه الكتابات لم تكن لتوضع لو لم تكن تترجم ما كان معروفاً من كتابات وميراث، وقد كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى الفكرة التي سعى الأقدمون إليها، فهذه الكتابات التي كانوا ينقشونها في أقصى المواقع سعوا إلى حفظها من الاندثار؛ لكي يشاهدها من مر بها، ويحفظ ذكرها على مر الأزمنة والعصور(2)

تلت تلك المرحلة مرحلة الإسلام الأولى حيث كان العرب في هذه المرحلة يهتمون كبقية الأمم القديمة في تدوين مذكراتهم، وأحداث عصرهم في نقوش كما أكدت آثار اليمن وغيرها، ولم

يتركوا لنا آثاراً مكتوبة كثيرة، ومرد ذلك طبيعة حياتهم آنذاك، واعتمادهم على الترحل والانتقال، يضاف إلى ذلك قلة الكَتَبة، وإن كانوا على جانب كبير من البيان والبلاغة، حتى إن النبي العربي الكريم صلى ا عليه وسلم - وهو الأمي - لم يجد إلا نفراً قليلاً في أمته لكتابة ما جـاء بـه الوحي حيث دون القرآن الكريم على الرقّ، وعلى الحجارة، وسعف النخيل، أي على النحو الذي حفظ به العالم القديم ملحوظاته وأحداث الأزمنة الغابرة.

وتؤكد البحوث المعاصرة أن عدداً من الصحابة تركوا آثاراً مكتوبة بخطوطهم عثـر عليهـا مؤخراً(3) إضافة إلى أن القرآن الكريم الذي يعد أول كتاب سماوي دون مع ظهور الإسلام كـان يحفظ أولاً في صدر النبي صلى ا عليه وسلم حتى تجتمع إليه الكتبة.

بعد هذه المرحلة أدى العرب بعد ظهور الإسلام دوراً خطيراً في تاريخ الكتب والمكتبات، فقـد نقلوا إلى اللغة العربية كل ما وجدوه من تراث سابق، وأضافوا إليه ما ابتكروه من علوم، ومـا أبدعوه من آداب وفنون، حافظوا على هذا الرصيد الحضاري؛ نقلاً وإضافة إلى أن أسلموه إلـى أوروبا في القرن الثاني عشر للميلاد؛ فكانوا موئلاً عظيماً للثقافة، وكانت مكتبـاتهم مـستودعاً أميناً للتراث الإنساني منذ أقدم العصور.

قبل الخوض في تفصيلاتنا نجد أن من الضرورة بمكان أن نشير إلى أن تـاريخ الكتـاب قـد ارتبط بعاملين أساسيين:الأول عامل ثقافي حضاري قائم على العلم، ونشوء التـدوين، والثـاني عامل مادي فني متعلق بتوفر مواد الكتابة من البردي، والرقّ والورق فيما بعد،وتهيئتها لصناعة الكتاب، ثم كان لظهور الكتاب دور في التمهيد لنشوء المكتبات التي امتدت إلى شتى الأمصار.

الصحيح أن الكتاب ارتبط بمراكز العلم، وولد في قاعات الدرس بشكل عام، فقد عاشت المكتبة في كنف أماكن العبادة، مثل الأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، والجامع الكبير في صنعاء، هذا كله يترجم لنا توفر الجو الثقافي، وانتقال العلوم من المشافهة إلى التدوين، ونشوء المراكز العلمية.

تطور أدوات الكتابة

لقد كان لأدوات الكتابة، ووسائلها الدور البارز في ظهور الكتاب؛ لذا فإنّي سـأقف وقفتـين؛ الأولى عن المواد التي كانوا يكتبون عليها، والثانية عن المواد التي كانوا يكتبون بها.

أما الأولى؛أي المواد التي كانوا يكتبون عليها فهي ضروب شتّى؛ أبرزها:

1 – الجلد: وكانوا يسمونه الرق، والأديم، والقضيم، والفرق بينها غير واضح من النصوص والروايات نفسها، ولكن المعجمات تجعل الرق الجلد الرقيق الذي يسوى ويرقّق ويكتـب عليـه، وتجعل الأديم الجلد الأحمر أو المدبوغ، وتجعل القضيم الجلد الأبيض يكتب فيه، وقد ورد ذكرهـا كلّها في الشعر الجاهلي.

2 – القماش: وهو إما حرير وإما قطن، ويطلقون على الـصحف إذا كانـت مـن القمـاش: المهارق، مفردها المهرق، وهو لفظ فارسي معرب.

3 – النبات: وأشهر أنواعه العسيب، وجمعه عسب وهو السعفة، أو جريدة النخل إذا يبـست وشذبت من خوصها. وقريب من العسيب: الكُرنافة وجمعها كرانيـف، وهـي أصـول الـسعف العراض اللاصقة بالجذع، وقد ورد أن الوحي كان يكتب في عهد الرسول صلى ا عليه وسـلم على العسب والكرانيف. ومن ذلك الرحل ويكون من الخشب الذي يوضع علـى ظهـر الجمـل ليركب. ومن الخشب أيضاً الروسم (الخشب العريض) والسهم والعصا.

4 – العظام: وأشهر أنواع العظام التي كانوا يكتبون عليها: الكتف واللوح والأضلاع.

5 – الحجارة: وهي حجارة بيض رقاق يكتب عليها، وقد كتبت عليها آيات القرآن الكريم على عهد الرسول (ص)، ومن تمام الحديث عن النقش على الحجارة أن نشير إلى الـنقش والكتابـة على البناء،فقد ورد أن رسول ا (ص) لم يدخل الكعبة يوم الفتح حتى أمر بـالزخرف فمحـي وأزيل، وأمر بالأصنام فكسرت أي النقوش والتصاوير، وقد روى ابن الكلبي أنـه أخـذ علمـه بأنساب العرب مما وجده على جدران كنائس الحيرة.

6 – الورق: وقد عرف الصينيون صناعته منذ زمن بعيد، وقد استخدمه العرب في الكتابـة، فقد ذكر ابن النديم أنه رأى أوراقاً من ورق الصين فيها كتابة بخط يحيى بن يعمر المتوفّى عـام 90 هجرية، إضافة إلى أن عثمان بن عفان عزم على كل رجل معه من كتاب ا شيء أن يذهب به إليه، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه شيء من القرآن. وقال عمرو بن نـافع مـولى عمر بن الخطاب " فاستكتبتني حفصة بنت عمر مصحفاً لها....فلما بلغت إليها حملـت الورقـة والدواة " وغير ذلك من الأدلة التي لا أرى داعياً للتفصيل فيها.

ولقد كانت لهذه المواد المكتوبة ألفاظ عامة يطلقونها عليها ليدلّوا على المكتوب، وما كُتـب عليه معاً، من ذلك

الصحيفة: وقد تكون جلداً أو قماشاً أو نباتاً أو حجراً أو عظماً أو ورقاً.

الكتاب: وهي لفظة قد تكون أعم من الصحيفة، وأكثرها شيوعاً

الزبور: وجمعها زبـر، وقد يراد بها الكتاب الديني، ولكنها تطلق أيضاً على غيـره مـن الكتب.

أما الثانية؛ أي المواد التي كانوا يكتبون بها فهي ثلاثة أمور:

1 – القلم: وقد أسهب الكثيرون في وصفه كابن قتيبة، وابن النديم، والصولي، والبطليوسي، والقلقشندي، وخلاصة ذلك أنه مصنوع من القصب يـقطّ، ويقلّم، أو يبرى، ثم يغمس في مـداد الدواة، ويكتب به.

2 – الدواة: وهو الوعاء الصغير الذي يوضع فيه الحبر؛ ليغمس فيه القلم، ويصنع عادة من بعض المعادن المعروفة آنذاك كالحديد، أو النحاس.

3 – المداد: أو النقْس كما يطلق عليه وهو سائل يؤخذ من رماد بعض المواد المحروقـة، أو من أنواع معينة من الحجارة الملونة تدقّ وتطحن وتخلط بالماء حتى يصبغ لونه، وهـو علـى ألوان أشهرها الأسود. وكثيراً ما كانوا يمحون المكتوب بالمداد حين تنقضي حاجتهم منـه، ثـم يستخدمون الصحيفة لكتابة شأن آخر من شؤونهم، ويسمون هذه الصحيفة التي يكتبون عليهـا أكثر من مرة طرساً.

تنوعت موضوعات الكتابة العربية وتعددت موادها، وارتقت شيئاً فشيئاً مواكبـة ارتقـاء الفكر العربي نتيجة لعوامل كثيرة لاتغيب عن أذهاننا جميعاً، ولا يتسع المقام للوقوف عليها.

ولعل أول هذه الموضوعات التي كانوا يدونونها: الكتب الدينية فقد كان اليهود والنـصارى يدونون كتبهم التي يتلونها باللغة العربية إضافة إلى العبرية والسريانية، بدليل أن المسلمين بعد فتح خيبر وجدوا مصاحف فيها التوراة فجمعوها ثم ردوها على اليهود (4) والموضوع الثـاني الذي حرصوا على كتابته هو هذه العهود والمواثيق والأحلاف (5) ونضيف إلى ذلك موضـوعاً هو أكثر اتساعاً، وألصق بحاجات المرء وحياته المعاشية من غيره، هو الصكوك التي تكتب فيها حسابات التجارة والحقوق(6) ومن ذلك أيضاً كتابة الرسائل بين الأفراد، يحملونهـا أخبـارهم، ويضمنونها ما تتطلبه شؤون حياتهم(7) وكذلك مكاتبة الرقيق، وذلك أن يتفق العبد وسيده على قدر معلوم من المال يكون في الغالب مساوياً لثمنه، فإذا أداه لسيده عتق وأصبح حراً (8) ومن

ذلك الكتابة على الخاتم الذي تختم به الرسائل، وأوعية الطعام، أو الشراب، بالإضافة إلى كتابة الأنساب والشعر والأخبار.

الكتابة في صدر الإسلام

قبل أن نخطو نحو الحديث عن الكتب والمصنفات، أجد من الضرورة بمكان أن أشير إشارة سريعة إلى الخط العربي المستخدم في الكتابة حتى تتكامل الصورة في ذهننا، ونحيط بها إحاطة السوار بالمعصم.

ظلت نشأة الخط موضع أخذ ورد متأرجحة بين آراء العرب القدامى، والمستشرقين المحدثين، وسواء أكان الخط توقيفاً علّمه ا آدم، ثم أصابه إسماعيل بعد الطوفان(9) ، أم يكون اختراعاً أخذته العرب عن الحيرة، والحيرة أخذته عن الأنبار، والأنبار أخذته عن اليمن، أو أخذته عن العرب العاربة الذين نزلوا في أرض عدنان(10)، أم يكون مشتقاً من الخط الآرامي كما يذهب بعض المستشرقين(11)، أم يكون مشتقاً من الخط النبطي كما يذهب المستشرقون اليوم.

تاريخ الكتابة المنقوشة قديم يعود إلى القرن الثالث الميلادي، وقد وجد أن حروف كلماتها نادراً ما تتشابه مع الحروف العربية، بل هي أقرب إلى الثمودية واللحيانية والنبطية واليونانية والسريانية؛ لذلك سأقفز فوق الحديث عنها لأشير إلى الكتابة المنقوشة بحروف عربية بعيداً عن التفصيلات حول دقة الحرف أو تنقيطه أو تشكيله.

كان يظن أن النقش المحفوظ في القاهرة هو أقدم نقش بين أيدينا؛ لأنه مؤرخ في عام 31 هجرية، أي في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي ا عنه إلى أن عثر خارج السور الشمالي في المدينة المنورة على كتابة منقوشة أخرى تعود إلى غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة.

أما من حيث الكتابة على الورق أو الجلد أو غيره فهي ثلاث رسائل عثر على أصولها الحقيقية وهي من الرسول (ص) إلى المقوقس في مصر، والمنذر بن ساوى، والنجاشي في الحبشة. كما نشير إلى مرحلة النقط والشكل والإعجام حيث ينسب إلى الحجاج أنه أمر كتّابه أن

يضعوا للحروف المشتبهة ـ مثل الباء والتاء والثاء والنون ـ علامات تزينها، وقد ينسب إلى غيره هذا الأمر.

والسؤال المطروح هو: هل عرف العرب الكتابة؟، وإلى أي مدى كانت منتشرة بين المسلمين؟

يقول الجاحظ: ((وكل شيء للعرب، فإنما هو بديهة وارتجال)) ....إلى أن يقول: ((وكانوا أميين لا يكتبون))، وإلى الأمر نفسه أشار ابن سعد في طبقاته، وابن عبد ربه في العقد الفريد حيث يقول: إنه لم يكن أحد يكتب بالعربية حين جاء الإسلام إلا بضعة عشر نفراً. وقد وصل الأمر بابن قتيبة إلى تجهيل الصحابة أنفسهم ـ رضي الله تعالى عنهم ـ بالكتابة، ونعتهم بالأمية. يقول ابن قتيبة بالحرف الواحد: ((لأنه ـ أي عبد الله بن عمرو ـ كان قارئاً للكتب المتقدمة، ويكتب بالسريانية والعربية، وكان غيره من الصحابة أميين، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنين، وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجي)) (12)، ولا ريب أن هذا القول من ابن قتيبة افتئات على الحقيقة التاريخية، وتعميم لا سند له من الحق، ولو كان قد قال إن بعض الصحابة كان أمياً لكان قوله سليماً لا ريب فيه، ولو قال: إن أكثر الصحابة كان أميا لقبلنا هذا القول على ما فيه من تجوز وتعميم. وهنا نذكر بأن كتب الطبقات تَعد من الصحابة عشرات بعد عشرات كلهم كاتب ضابط لما يكتب، وعندما تتوفر في أمة عشرات بعد عشرات من الكتبة الضابطين، فإنه يقف وراء ذلك أعداد كبيرة من الكتبة ـ وإن كانوا من غير الضابطين، ناهيك عما ذكره ابن فارس حين قرر معرفة العرب بعلوم اللغة وقواعدها وعروضها راداً على من يذهب إلى استحداث هذه العلوم بعد الإسلام بدهر(13)، لكننا لن نذهب طويلاً في هذا الاتجاه بل يكفي أن نعرف أن كثيراً من الكتب ذكرت أسماء الذين كتبوا لرسول الله (ص)، فقد جعلوهم مراتب وقدروهم منازل؛ فكتّاب يكتبون بين يديه(ص) فيما يعرض من أموره وحوائجه، وآخرون يكتبون بين الناس المداينات وسائر العقود والمعاملات، وآخرون يكتبون أموال الصدقات، وآخرون يكتبون مغانم رسول الله (ص)،ومنهم من يكتبون إلى الملوك ويترجمونها إلى الفارسية والرومية والقبطية والحبشية، وآخرون يكتبون الوحي، ويعقب المسعودي(14) بعد أن ينتهي من ذكر أسماء هؤلاء الكتاب واختصاصاتهم بقوله: ((وإنما ذكرنا من أسماء كتابه (ص) من ثبت على كتابته واتصلت أيامه فيها، وطالت مدته، وصحت الرواية على ذلك من أمره، دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتباً ويضاف إلى جملة كتّابه))

بعد هذه الجولة السريعة التي اقتضبت فيها أضعاف ما أثبتّ، ووقفت في محطات مضيئة من تاريخ الكتابة، فإنني أعرض عليكم المصنفات المهمة في أبرز العلوم والفنون مشيراً إلى أصحابها كلما دعت الضرورة ذلك آخذاً بعين الاعتبار المؤلفين الذين توفاهم ا عام 215 هجرية فما قبل مجتهداً في أن المؤلفات التي سأتناولها صنفت قبل نهاية القرن الثاني الهجري، مهملاً كثيراً من الكتب لأن أصحابها توفوا بعد عام 215هجرية على الرغم من احتمال أنهم صنفوا كتبهم قبل أفول شمس القرن الثاني الهجري.

1 ـ الأنساب

كان من أوائل ما عنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم، ومن ثم كثر بينهم علماء الأنساب، وأصحاب الأخبار، ومن أشهرهم دغْفَل بن حنظلة السدوسي المتوفى عام 70 هجرية، وله مجالس عند معاوية دونت في كتاب له اسمه ((التضافر والتناصر)) (15).

ومن ذلك هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى عام 204هجرية وهو المكنى بابن السائب الكلبي، كان نسابة كأبيه ابن السائب، وقد ترك تآليف عديدة تتصل بالأنساب منها كتاب الجمهرة وهو المعروف بجمهرة أنساب العرب، ومنها المثالب، وبيوتات قريش، والكنى، وبيوتات اليمن، كما أن له كتاباً في أنساب الخيل باسم (نسب الخيل)

2 ـ التاريخ والمغازي

بدأت منذ القرن الأول عملية تدوين مغازي الرسول (ص)، وهنا أشير إلى أن عمر بن الخطاب (رض)هو واضع التقويم الهجري حتى غدا عنصراً حيوياً في نشأة الفكرة التاريخية، وعموداً فِقْرياً للدراسات التاريخية.

ومن أقدم من كتب في هذا الصدد كعب الأحبار المتوفى عام 32هجرية وكان من يهود اليمن ، وقد طبع له في القرن الماضي كتاب بمطبعة بولاق تحت عنوان (في حديث ذي الكِفْل)، ثم نرى معاوية حين استقدم عبيد بن شَرية الجرهمي اليمني ليحدثه
في مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين، وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم، فتألف من ذلك كتاب (أخبار الأمم الماضية) وكان متداولاً في عصر المسعودي

(16)، وقد طبع في حيدر آباد تحت عنوان (أخبار عبيد بن شَرية الجرهمي في أخبـار الـيمن وأشعارها وأنسابها)

ومن نمط هذا الكتاب (كتاب التيجان) لوهب بن منبه المتوفى عام 114هجرية وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة. ولوهب أيضاً كتاب (المبتدأ في الأمـم الخاليـة) وكتـاب (قصص الأنبياء) وهو موجود في مكتبة بلدية الإسكندرية(17) وله كـذلك (أحاديـث الأنبيـاء والعباد).

ونجد عروة بن الزبير المتوفى عام 94هجرية وهو فقيه ومحدث مشهور وكان مـؤسس دراسة المغازي إذ كان أول من ألف كتاباً في المغازي، وكذلك فعل أبـان بن عثمان بن عفان، وقد وصل منـها مقتبسات أوردها الطبري والواقدي وابن كثير وغيرهم(18)

ونجد كذلك الزهري محمد بن مسلم المتوفى عام 124هجرية قد وضع كتابـاً فـي المغـازي مستخدماً تعبير (السيرة) وقد أيد ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون(19)

ولا بد من الإشارة إلى ما تركته لنا الأخبار عن عوانة بن الحكم المتوفى عام 147 هجريـة وعمرو بن العلاء المتوفى عام 154هجرية، وحماد الراوية المتوفى عام 156هجريـة، وأبـي مخنف المتوفى عام 157 هجرية وسيف بن عمر المتوفى عام 180هجرية.

3 ـ الشعر والأدب

تنوعت أعمال الرواة في تدوينهم للشعر العربي وجمعهم لأشتاته، بعد أن تلقوه مـن أفـواه رواة القبائل ومن الأعراب في البوادي، بل كان الأعراب أنفسهم يفدون أحياناً على الحواضـر ؛ ليأخذ عنهم الرواة والعلماء: الشعر واللغة والأخبار والأيام.

وقد اتجه قسم من هؤلاء الرواة إلى جمع دواوين الشعراء، كل شاعر على حدة، ومنهم مـن اتجه إلى جمع أشعار قبائل معينة، كل قبيلة في ديوان مستقل، ومنهم من اتجه إلى تصنيف مـا يسمى بكتب الاختيار.

وهنا سأقف عند ما يحدده البحث لي أي حتى نهاية القرن الثاني الهجري:

1 ـ المفضليات: لعلّ أقدم مجموعة شعرية وصلتنا مما صنف في القرن الثـاني الهجـري كتاب المفضليات لمصنفه المفضل بن محمد الضبي الراوية الكوفي المشهور المتوفى عام 168 هجرية والذي كان من أعلام عصره في العربية والشعر والأخبار.

للمفضليات منزلة كبرى في الأدب العربي، فهي إلى كونها أقدم مجموعة من نوعهـا فـي الشعر العربي، تمتاز بميزات كثيرة، لعل أبرزها أنها لا تضم من الأشعار إلا ما كان قديماً، فهي تحتوي على 130 قصيدة لستة وستين شاعراً عاشوا وماتوا في الجاهلية، وليس بينهم إلا عدد قليل من المخضرمين والإسلاميين الأولين.

ومن ميزاتها أيضاً أن القصائد في هذه المجموعة قد أُثبتت بتمامها، ولم يعمد المفضل إلـى الإختيار والتفضيل بين أبيات القصيدة الواحدة، ومن أهم ما تمتاز به هذه المجموعـة أن اسـم مؤلفها كان أبداً موضع الاحترام، فلم يطعن عليه أحد من معاصريه، أو ممن جاء بعد في أمانته وصدقه؛ على كثرة من طعن عليه من رواة الشعر في ذلك العصر، بل المعـروف المـشهور أن المفضل كان من أوائل الذين تنبهوا، ونبهوا على بعض محاولات الرواة الآثمة(20).

2 ـ نقائض جرير والفرزدق: جمعها وشرحها أبو عبيدة، معمر بن المثنى المتوفى عـام 209هجرية، واشتهر هذا الكتاب باسم كتاب النقائض، وهو يضم القصائد الهجائيـة والفخريـة التي نظمها ذانك الشاعران الأمويان، ورد كل منهما على خصمه(21).

وفي هذا المجال أجد من الضرورة بمكان أن أشير إلى كتاب (رسالة الصحابة) لابن المقفع المتوفى عام 142هجرية، وهو موجه إلى الخليفة المنصور محاولاً تقديم النصح له في مـشاكل متعددة كالنظام القضائي ، والنظم الإدارية بأسلوب أدبي بليغ(22)

4 ـ اللغة والأمثال:

اللغة نظام اجتماعي خاضع لتأثير الزمان والمكان، وكلما تعاقبت الأيام وجدنا فروقاً بين اللغة التي يتكلمها الأقدمون، واللغة التي يتكلمها المعاصرون، ولاسيما الألفاظ والتراكيب، لأن اللغـة أيضاً كائن حي يخضع لعوامل النشوء والارتقاء،والتبدل والتطور، فتولد كلمات جديدة، وتمـوت أخرى قديمة، و تحيا أساليب كانت مندثرة، وتضمحل أخرى كانت شائعة ذائعة. وهذا هو شـأن اللغة العربية، التي لا تخرج عن تلك القوانين التي تنتظم اللغات جميعاً.

وربما اختلفت اللغة العربية عن سائر اللغات الأخرى في عدة ظواهر برزت فيها أكثـر مـن غيرها كالمترادفات، والأضداد، والمجاز، ومثلثات الكلام، لارتباط هـذه اللغـة بحيـاة العـرب

الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية إلى جانب تعدد اللهجات عندهم، تبعاً لاختلاف القبائل العدنانية والقحطانية التي لم تكن على درجة واحدة من الفصاحة وإن كانت قريش أفصحها.

كما تجدر الإشارة إلى مرحلة تدوين ألفاظ اللغة العربية في رسائل متفرقة صـغيرة محـدودة الموضوع مبنية على معنى من المعاني أو على حرف من الحروف، وقد ذابت كلها في المعاجم الجامعة التي ألفت فيما بعد. وقد وصـلنا كثير من الرسائل التي تمثل هذه المرحلة، فلأبي زيـد الأنصاري صاحب كتاب النوادر الذي سأشير إليه لاحقاً عدد من الرسائل اللغوية نحـو: كتـاب المطر، وكتاب اللبأ واللبن، كما أن لمعاصره الأصمعي المتوفى عام 216هجرية - وهو خـارج نطاق الدراسة - رسائل كثيرة نحو: كتاب الإبل وكتاب الخيل وكتـاب الـشاء وكتـاب أسـماء الوحوش وصفاتها وكتاب خلق الإنسان وكتاب النبات والشجر. وهناك كتاب الصفات للنضر بـن شميل المتوفى عام 204هجرية وكتاب الزرع لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتـوفى عـام 210 هجرية.

وهناك كتب أخرى جمعت فيها الألفاظ تبعاً لأحد حروف أصولها؛فيقال كتاب الخـاء وكتـاب الجيم وهكذا، ومن أشهر ما وصلنا كتاب الهمز لأبي زيد الأنصاري أيضاً.

أبدأ أولاً بكتب النوادر ؛ لأنها تقوم على جمع الألفاظ الغريبـة والنـادرة ومعرفـة معناهـا ومواضع استعمالها وقد صنع أبو عمرو بن العلاء المتوفى عام 154هجرية، والكسائي المتوفى عام 189هجرية، وأبو محمد اليزيدي المتوفى عام 202هجرية، وأبو عمرو الشيباني المتـوفى عام 205هجرية، والفراء المتوفى عام 207هجريـة، وأبـو زيـد الأنـصاري المتـوفى عـام 215هجرية كتباً تحمل اسم (النوادر)، وقد ذكرهم ابن النديم في الفهرست(23)

كتب الغريبين: والغريبان: غريب القرآن، وغريب الحديث.وكتب الغريبين: هي الكتـب التـي تعنى بجمع الألفاظ التي تبدو غريبة على القارئ في القرآن الكريم أو الحديث الشريف، وأبـرز هذه الكتب غريب القرآن لمؤرج السدوسي المتوفى عام 195هجرية، وغريب الحـديث لقطـرب المتوفى عام 206هجرية، وأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى عام 210هـ(24).

كتب الأضداد : وهي التي تعنى بكلمات تستعمل كل منها بمعنيين متضادين، مثل (باع) يكون على المعنى المعروف عند الناس، ويكون بمعنى ابتاع واشترى، ومثل (الـضعف) فيكـون ضعف الشيء مثله، ويكون مثليه، وكذلك (الغريم)الذي له الدين، والذي عليه الدين أيضاً، أي الدائن والمدين، ومن ذلك (المأتم) ويطلق على النساء المجتمعات في الحزن أو فـي الفـرح. والسليم على السالم الصحيح الجسم وعلى الملدوغ الذي نهشته الحية تفـاؤلاً بـسلامته مـن اللدغة.

وأصحاب هذه الفئة من الكتب هم من المتأخرين، ولعل أقـدمهم الأصـمعي المتـوفى عـام 216هـ(25)

كتب اللحن: وهي التي تعنى بتقويم اللسان بعد أن سرى الفساد إلى سلائق العرب، ولغـتهم التي يتكلمونها بعد اختلاطهم بالأعاجم منذ أوائل العصر الإسلامي.

في البدء اقتصر تصحيح اللحن على مجالس العلماء والأدباء وما شاكلها بـصورة شـفهية. ويعد كتاب (ما تلحن فيه العوام) للكسائي المتوفى عام 189هـ أقدم ما وصل إلينا من الكتـب في هذا الموضوع، وتبعته في مثل هذه التسمية تقريباً كتب كثيرة مثل (ما تلحن فيه العامـة) لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى عام 208هـ(26).

وهناك كتب محدودة الموضوع بنيت على ظاهرة لغوية، أو على معنى من المعـاني ، وهـي كثيرة جداً لعل أبرزها : كتب الحيوان والنبات التي أشرت إليها في مقدمة حـديثي عـن كتـب اللغة.[2] [3]

وهناك مثلثات الكلام، ذلك أن في اللغة العربية ألفاظاً وردت كل منها على ثلاث حركات فـي الحرف الأول منها، بمعان مختلفـة، نحـو: الغَمـر والغِمـر والغُمـر(27)، والكَـلام والكِـلام والكُلام(28)، وكان قطرب النحوي المتوفى عام 206هـ أول من جمع المثلث في اللغة في كتيب صغير لكن له فضيلةَ السبق(29)

صنف آخر من التصانيف صنعها قطرب المتوفى عام 206هـ والفراء المتوفى عام 207هـ وأبو زيد الأنصاري المتوفى عام 215هـ وهي ما يسمى بكتب (فَعلَ و أَفْعـلَ) حيـث تعنـى بتصنيف الأفعال الثلاثية المجردة التي وزنها فَعلَ والتي تزاد الهمزة في أولها فيـصبح وزنهـا أَفْعلَ وعندئذ إما أن يختلف معناها، نحو: شرَقَت الشمس، إذا طلعـت، وأشـرقت إذا أضـاءت، وصفَت، وإما أن يبقى كما هو، نحو: بـل من مرضه، وأَبـل إذا برأَ وشُفِي.

وبعضهم جعل الكلام على فَعـلْـت وأَفْـعـلْـت في فصول خاصة ضمن أبحاث كتبهم مثـل سيبويه المتوفى عام 180هـ (30)

5 ـ المعجمات

وهي نوعان؛ معاجم المعاني ومعاجم الألفاظ ، وقد تمثلت معاجم المعاني في رسائل صـغيرة يتناول كل منها موضوعاً واحداً أو أكثر، مثل: الحيوان ، والنبات، والمطـر، وخلـق الإنـسان،

ونذكر منها كتاب السلاح للنضر بن شميل المتوفى عام 204هـ، والزرع لأبي عبيدة المتـوفى عام 210هـ ، والشجر لأبي زيد الأنصاري المتوفى عام 215هـ ، وكنت قد أشرت إلى ذلك في مجال اللغة بالتفصيل(31).

أما النوع الثاني من معاجم الألفاظ فهو يبرز عند رائد هذه الطريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى عام 175هـ الذي أعرض عن الترتيب الهجائي لأنه مبني أصلاً على الرسم والكتابة في حين أن اللغة قوامها النطق والأداء المبنيان على الصوت وخروج الكلام بحروفه من داخل الفم.

وكانت الخطوة التالية لدى الخليل حصر مفردات اللغة العربية التي لـم يجمعهـا جـامع، ولا استقصاها أحد من قبل، فلجأ إلى فكرة رياضية فذة تقوم على اعتماد مبدأ التقاليب، وهو توليـد كلمة من كلمة بتغيير مواضع الحروف فيها، وهذا ما يعرف بالاشتقاق الكبير.فالأصـل الثنـائي ج ر تخرج منه صورتان هما (جر) و (رج)، والأصل الثلاثي يكون منه عادة ستة تقاليـب، فتقاليب ب ح ر هي بحر برح حبر حرب ربح رحب ، والأصل الرباعي مثل عبقر يخرج منـه أربع وعشرون صورة، أما الخماسي سفرجل ففيه مئة وعشرون صورة. ولا شيء من الأصول فوق الخماسي، وبهذه الطريقة الرياضية استطاع الخليل أن يتوصل إلى حصر ألفاظ اللغة العربية من الناحية النظرية باثني عشر مليون كلمة تقريباً؛ لكنها ليست كلها مستعملة عند العرب فهناك تقاليب كثيرة مهملة، ولاسيما في الأصلين :الرباعي والخماسي.فكان الخليل يثبت في معجمه ما كان مستعملاً، ويغفل ما كان مهملاً في الاستعمال(32)

وعلى الرغم من تشكيك بعضهم في نسبة معجم العين للخليل فإنه يبقى رائد المعاجم العربيـة والمنهل الثر الذي نهلت منه المعاجم التي أُلّفت بعده، كما اختصره فيما بعد النضر بـن شـميل المتوفى عام 203هـ صاحب (المدخل إلى كتاب العين)(33).

ثم جاء كتاب (الجيم)لأبي عمرو الشيباني المتوفى عام 206هـ وسمي معجمـه (الجـيم) ومعناه الديباج تشبيهاً له بالديباج لحسنه، وهو يراعي الحرف الأول للكلمة ولهذا نجـد مـواد حرف الهمزة تتوالى هكذا: أوق، ألب، أفق، أزح، أنف، أرب، أخذ، وهكذا، إضافة إلى أنه يهـتم بالألفاظ الغريبة في شعر شعراء ثمانين قبيلة عربية(34).

6 ـ النحو

بعد البدايات النحوية التي جاءت على شكل ملحوظات نقلها إلينا الرواة يبرز لنا اسم عيـسى بن عمر المتوفى عام 149هـ الذي ترك كتابين هما (الجامع) و (الكامل) وضـمنهما جـلّ الأبواب النحوية التي اتضحت أصولها في مطلع القرن الثاني الهجري، وفي ذلك يقول الخليل بن أحمد :

ذهب النـحو جميعاً كلّه غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال، وهذا جامـع فهمـ ـ ـا للناس شمس وقمر

ومما لا شك فيه أن عيسى بن عمر تعرض في كتابيه لكثير من الأبواب النحوية، إن لم يكـن معظمها(35)، وهذا يظهر جلياً من خلال كتاب سيبويه حيث يشير كثيراً إلى عيسى بـن عمـر وآرائه النحوية.

بعد ذلك نرى يونس بن حبيب المتوفى عام 183هـ حيث كان له عدد من التصانيف ذكر منها المؤرخون سبعة هي: معاني القرآن الكبير، ومعاني القرآن الصغير، وكتـاب النـوادر الكبيـر، وكتاب النوادر الصغير،وذكروا له كتاباً في اللغات، وآخر في الأمثال، وآخر فـي القيـاس فـي النحو، وتظهر هذه المعالجات النحوية، والقراءات القرآنية بما تحويه من آراء؛ تظهـر جليـةً واضحةً من خلال ما يورده سيبويه وغيره عن يونس بن حبيب.

ثم يظهر لنا كتاب سيبويه المتوفى عام 180هـ ، وهو أعظم ما وصلنا من الكتب الأصيلة في النحو والصرف، وأكثرها شهرة،وقد تلقاه العلماء بالقبول والرضى منذ أن ألفه صاحبه وهو في حداثة الشباب، وعجبوا لظهوره بصورته الرائعة مكتمل الجوانب.

لم تكن مهمة سيبويه في كتابه الجمع وحسب، بل كان ذا شخصية واضحة؛ فهو يستنبط كثيراً من القواعد بنفسه اعتماداً على سماعه من العرب.

ومن ميزات الكتاب عنايته بالشواهد لتثبيت الأحكام؛ وقد استشهد بـالقرآن الكـريم والنثـر والشعر إضافة إلى اهتمامه بأحكام القراءات والبلاغة وفقه اللغة واللهجات وقضايا تتصل بالشعر وصناعته(36)

7 ـ الفقه وأصوله، والتفسير

إن عناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم، وأشعارهم لا تقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف، فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عنيت بتفسير الذكر الحكيم، ورواية الحديث الشريف،وكان الكثيرون يحرصون على تدوين ما يسمعونه. وقد اشتهر ابن عباس المتوفى عام 68هـ في مكة بما كان يحاضر في تفسير القرآن الكريم، وحمل عنه تفسيره نفر من التابعين، يقول ابن حنبل " بمصر صحيفة في التفسير عن ابن عباس لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً(37)، ذلك ما جمعه فيما بعد الفيروزأبادي وسماه تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، ولا نكاد نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث، ثم نرى اهتمام الزهري المتوفى عام 124هـ ، ويذكر جولدتسيهر أن عروة بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة،كما يشير إلى وجود مختصر في الفقه اسمه (مجموعة زيد بن علي) في المكتبة الأمبروزية بميلانو.

ننتقل بعد ذلك إلى الإمام مالك المتوفى عام 179هـ، (صاحب المدونة الكبرى) التي دونها عنه تلميذه سحنون (عبد السلام بن سعيد التنوخي) المتوفى عام 240هـ، والمدونة من المؤلفات الأمهات في الفقه المالكي، وقد جمعت جميع أبواب الفقه وفروعه(38).

وللإمام مالك أيضاً (الموطأ) وهو كتاب في الفقه المالكي وفي الحديث،وهو من أوائل الكتب التي صنفت الحديث على أبواب الفقه، ويعد بين كتب الحديث في مرتبة الصحاح، وقال فيه الإمام الشافعي: " ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب ا أصح من موطأ مالك "(39).

ثم يطل علينا كتاب (الخراج) لأبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم المتوفى عام 182هـ ،وهو أحد أبرز علماء الفقه الإسلامي، وله كتاب آخر تحت عنوان (أدب القاضي) لا يزال مخطوطاً(40).

ثم نصل إلى الإمام الشافعي المتوفى عام 204هـ ، صاحب (الرسالة) وهي أم المؤلفات في أصول الفقه، وهي التي أسست القواعد التي سار عليها الأصوليون بعده(41)، وله كذلك كتاب (الأم)، وهو في الحقيقة الأم لجميع ما ألف في فقه الشافعية، إذ استوفى فيه الإمام الشافعي جميع أبواب الفقه مدعمة بالدليل(42)، وله كذلك كتاب (أحكام القرآن) الذي وضع مادته متناثرة إلى أن جاء البيهقي المتوفى عام 458هـ، وأعاد تصنيفه كاملاً(43).

8 ـ العلوم العامة

كان من الشائع خلال الفترة التي نحن بصددها النقل عن الموالي بعض معارفهم، كما يـذكر أن خالد بن يزيد بن معاوية كان شغوفاً بكتب النجـوم والكيميـاء والطـب، ويقـول صـاحب الفهرست: " رأيت من كتبه كتاب (الحرارات)، و(كتاب الصحيفة الكبير)، و (كتاب الصحيفة الصغير)، ويذكر في هذا الصدد أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسـرجويه بنقل كتاب القـس (أهرن) في الطب، ويروي الرواة أن (ثياذوق) طبيب الحجاج بن يوسف نظم في علم الـصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا، ويروى أن سالماً مولى هـشام نقـل بعـض رسائل أرسطاطاليس من اليونانية(44).

9 ـ شخصيات كبيرة

إذا كنا قد أشرنا في دراستنا إلى أهم المصنفات، محاولين أن نستنفد المـدونات،وإن كانـت صغيرة؛ فإنه لا تفوتنا الإشارة كذلك إلى شخصيات لامعة في سماء الدولة العربيـة الإسـلامية آنذاك. ومن أبرز هؤلاء:

عبد الحميد الكاتب المتوفى عام 132 هـ
ابن المقفع المتوفى عام 145هـ
أحمد بن يوسف المتوفى عام 213 هـ
سهل بن هارون المتوفى عام 215 هـ
عمرو بن مسعدة المتوفى عام 215هـ ويقال عام 217هـ

وبذلك آمل أن أكون قد بينت أن ماقدمته كان تصويراً يدل على الإنسان العربي الذي استطاع بإمكاناته المحدودة ـ في تلك الحقبة ـ أن يرتقي بفكره، ويسمو بقدراته مطلقاً العنـان لهـذه الطاقة الخلاقة؛ ليبدع في وضع أصول للغته، ويقعـدها، وينطلقَ لينهلَ من الحضارات الأخرى، ويحدثَ التلاقح الفكري الذي قدم لنا فيما بعد الحضارة العربية الإسلامية التي نباهي بها الأمـم على مر العصور.

الهـــوامـــش

[1] د/سهيل الملاذي، تاريخ الوثيقة العربية www.arabcin.net تاريخ2002/11/1
2 د/فريال عثمان الفريج تاريخ الوثيقة العربية www.arabcin.net تاريخ 2002/10/27
3 مجلة المجمع العلمي دمشق 1930 العدد العاشر ص 408
4 – المقريزي: إمتاع الأسماع ص 323
5 – الجاحظ: الحيوان ج 1 ص 69-70
6 – ابن النديم: الفهرست ص7-8 والواقدي:المغازي ص 65 وطبقات ابن سعد 220/8
7 – الأغاني: دار الكتب) 250/6 والمقريزي : إمتاع الأسماع ص 362
8 – طبقات ابن سعد 62/8
[9] – ابن فارس : الصاحبي ص 7
10 – ابن النديم : الفهرست 6 – 7
11– ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص 171
12 – ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ص43-44
13 – المصدر نفسه ص 48
14 – المسعودي : التنبيه والإشراف ص 245-246
15 - الجاحظ : البيان والتبيين 147/1،121 80/2 ، 253
16 – المسعودي : مروج الذهب 4 / 89
17 – شوقي ضيف العصر الإسلامي ص454 وانظر لعبد العزيز الدوري نشأة علم التاريخ عند العرب ص 257
18 - عبد العزيز الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب ص 24 ، 74
19 – حاجي خليفة : كشف الظنون 1747/2
20 - أمجد الطرابلسي حركة التأليف عند العرب ص 97 – 100 ، وانظر محمود فاخوري مصادر التراث والبحث ص 17
21 - محمود فاخوري مصادر التراث والبحث ص 45
22- حسين الكساسبة السلطة القضائية في العصر العباسي الأول ص 34 ، 35
[2]3 – محمود فاخوري : مصادر التراث والبحث ص 55
24–- محمود فاخوري : مصادر التراث والبحث ص 56
25 ـ المصدر السابق : 58
26 ـ المصدر السابق : 60 – 61
27 ـ الماء الكثير ، الحقد ، والجاهل.
28 ـ مخاطبة الناس ، والجراح ، والأرض الوعرة .
29 ـ محمود فاخوري : مصادر التراث والبحث ص 65 – 66
30ـ محمود فاخوري : مصادر التراث والبحث ص67
[3]1 ـ المصدر السابق ص 73
32 ـ المصدر السابق ص 85
33 ـ المصدر السابق ص 88
34 ـ المصدر السابق 101
[3]5 ـ أمان الدين حتحات : أثر مناهج الفقهاء في مناهج النحاة ص 134
36 ـ عبد الرحمن عطبة : مع المكتبة العربية ص 275 – 276

37 ـ شوقي ضيف : العصر الإسلامي ص 453
38 ـ عبد الرحمن عطبة : مع المكتبة العربية ص 45 – 46
39 ـ المصدر السابق : 408- 409
40 ـحسين كساسبة : السلطة القضائية في العصر العباسي الأول ص 29 – 30
41 ـ عبد الرحمن عطبة : مع المكتبة العربية ص331
42 ـ المصدر السابق ص 346
43 ـ المصدر السابق ص371
4[4] ـ شوقي ضيف : العصر الإسلامي ص 456